تفسيرُ القرآن الكريم

لمحة موجَزة في أصوله، وأبرز مناهجِه

إعداد: «شعائر»

«القرآنُ الكريم واضحٌ ومُيسّر للفهم، وكلّ مَن كان أصفى فطرةً وأكثر فِكراً وتدبّراً، فإنّه يحظى بفهمٍ أكبر، ويكون القرآن شفاءً ومصحّحاً للآراء والأفكار الّتي يحملها.

ولكن تبقى الحقائق المعنويّة وراء ستار الظّواهر، فاستلزمَ حَلُّها والكشفُ عن معانيها إلى فقه ودراسة، وتدبّر، وإمعانِ نظر. هذا مضافاً إلى غرائب اللّغة الّتي جاءت في الكتاب المجيد على أفصحها وأبلغها، ما استوجب تفسيراً وكشفاً لما غمضَ من معانيها».

المقال التّالي في أصول تفسير القرآن الكريم وطرائقه، اختصرناه عن كتاب (دروس قرآنيّة)، من إعداد «مركز نون للتّأليف والتّرجمة»، في بيروت.

قد يتمكّن أيّ إنسان من فهم ظواهر الألفاظ القرآنيّة، ولكنّه لن يصل إلى فهم مقاصده الأصليّة ومراميه الكلّيّة، إلّا من باب تزكية النّفس وتطهيرها من الأدران الخُلقيّة، فما دام الإنسانُ أسيرَ أهوائه وغرائزه، فإنّه لا يستطيع أن يدرك القرآن الّذي هو نور.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره، في كلامٍ له عن القرآن الكريم:

«الّذين يقفون خلف حُجُبٍ عديدة لا يُمكنهم أن يدركوا النّور.. ما دام الإنسانُ لم يخرج من حجاب نفسه المُظلم جدّاً، وطالما أنّه مُبتلى بالأهواء النّفسيّة، وبالعُجب، وبالأمور الّتي أَوْجَدَها في باطن نفسه، وتلك الظّلمات الّتي **بعضُها فوق بعض**، فإنّه لا يكون مؤهّلاً لانعكاس هذا النّور الإلهيّ [أي نور القرآن] في قلبه».

***

لا بدّ للمفسّر في استكشاف مُراد الله تعالى في القرآن الكريم، من التزام أحد ثلاثة أمور، هي أصولُ التّفسير ومداركه:

١) اتّباعُ ظواهر الكتاب العزيز:

المُراد من ظاهر القرآن ما يفهمه العارفُ باللّغة العربيّة الفصيحة، من اللّفظ، ولم يقم على خلافه قرينة عقليّة أو نقليّة مُعتبرة، فالقرآن نزل بلسان يسيرٍ واضحٍ ومفهوم، وخاطبَ النّاسَ بالطّريقة المألوفة: ﴿..وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟..﴾ الحشر:٧.

٢) ما حكم به العقل الفطريّ الصّحيح:

الآيات القرآنيّة الّتي ينافي ظهورها الابتدائيّ أحكام العقل القطعيّة لا بدّ من حملها على معنىً يتلاءم مع تلك الأحكام، فالعقل يقطع بِوُجود الإله بعد التّفكّر والتّدبّر وعدم جواز الجسميّة له، فقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ الفجر:٢٢، وإن كان ظاهراً ابتداءً في كون الجائي هو الرّبّ نفسه، المستلزم للجسميّة المُمْتَنِعَة في حقّه تعالى، إلّا أنّ حكم العقل القطعيّ باستحالة ذلك - لاستلزامه حاجة الخالق إلى جسمٍ، ما يجعله مُحتاجاً كمخلوقاته - يوجب عدم انعقاد ظهورٍ له بهذا المعنى، وهو اتّصافُ الرّبّ بالمجيء المادّيّ، وعليه فالمقصود بالمَجيء معنى آخر، كحضور صفة من صفات الله تعالى.

٣) ما ثبت عن المعصوم، من النّبيّ صلى الله عليه وآله، أو الإمام عليه السلام:

أمّا الإمام فلأنّه أحد الثّقلَيْن اللّذين أمَرَنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالتمسّك بهما. والأئمّة كما قال الصّادق عليه السلام: «**وُلاةُ أَمْرِ اللهِ، وَخَزَنَةُ عِلْمِ اللهِ، وَعَيْبَةُ وَحْيِ اللهِ**».

كما أنّ في القرآن قواعد كُلّيّة ومفاهيم عامّة لا نفهم جزئيّاتها وتفاصيلها وحدودها إلّا من خلال الرّسول صلى الله عليه وآله، والعترة عليهم السلام، وهذا ما يعبَّر عنه بالتّبيين. قال تعالى: ﴿..وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ..﴾ النّحل:٤٤.

وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ..﴾ البقرة:١١٠. فيأتي بيان النّبيّ صلى الله عليه وآله: «**صَلُّوا كَما رَأَيْتُموني أُصَلّي**».

والمفسِّر عندما يريد كشفَ مراد الله تعالى، يتسلّح بهذه الأمور الثّلاثة ويعتمد عليها، فلا يجوز الاعتماد على الظُّنون والاستحسان، ولا على شيءٍ لم يثبت أنّه حجّة من طريق العقل، أو من طريق الشّرع، للنّهي عن اتّباع الظّنّ، وحرمة إسناد شيءٍ إلى الله بغير إذنه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ..﴾ الإسراء:٣٦. والرّوايات النّاهية عن التّفسير بالرّأي مستفيضةٌ من الطّرفَين.

طرائق التّفسير

قد ظهرت طرائقُ مُتعدّدةٌ في تفسير القرآن الكريم عند المسلمين عامّة، نتيجة التّحوّلات الفكريّة الّتي شهدتها الأجيال اللّاحقة، ابتداءاً من القرن الثّاني الهجريّ فصاعداً؛ كالتّفسير بالمأثور، والتّفسير الفلسفيّ، والتّفسير الصّوفيّ، والتّفسير الكلاميّ، والتّفسير البيانيّ، والتّفسير اللُّغويّ، والتّفسير التّاريخيّ، والتّفسير العلميّ. ونحن ذاكرون لكم بعضاً من هذه الطّرائق:

١- تفسير القرآن بالقرآن:

وهو يتمّ من خلال مقابلة الآية بالآية، فما أُجمِل منها في مكان يتمّ تفسيره في مكانٍ آخر.

ورد عن النّبيّ صلى الله عليه وآله: «..**وَإِنَّ القُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِيُكَذِّبَ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَلَكِنْ نَزَلَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً**».

والقرآن كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**يَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلى بَعْضٍ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ**».

كما أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام، كانوا يستعملون هذا الأسلوب في استدلالاتهم واحتجاجاتهم من قبيل ما ذكر في (الكافي) عن عليّ بن يقطين، قال: «سأل المهديّ (العبّاسيّ) أبا الحسن [الإمام الكاظم] عليه السلام عن الخمر، هل هي محرّمة في كتاب الله عزّ وجلّ؟ فإنّ النّاس إنّما يعرفون النّهيَ عنها ولا يعرفون تحريمها؟

فقال له أبو الحسن عليه السلام: **بَلْ هِيَ مُحَرَّمَةٌ**.

فقال: في أيّ موضع هي مُحرّمة في كتاب الله عزّ وجلّ، يا أبا الحسن؟

فقال عليه السّلام: **قَوْلُ اللهِ تَعالى**: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ**..﴾ الأعراف:٣٣.

إلى أن قال عليه السّلام: فَأَمَّا الإِثْمُ فَإِنَّها الخَمْرُ بِعَيْنِها، وَقَدْ قالَ اللهُ تَعالى في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿**يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**..﴾ البقرة:٢١٩. **فَأَمّا الإِثْمُ في كِتابِ اللهِ، فَهِيَ الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ، وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما كَما قالَ تَعالى**».

ومن التّفاسير الّتي اتّبعت هذا الأسلوب، (الميزان في تفسير القرآن) للعلّامة الطّباطبائيّ.

٢- التّفسير الرّوائيّ:

وهو التّفسير بالأحاديث الواردة عن النّبيّ صلى الله عليه وآله، والأئمّة عليهم السلام. والأحاديث هذه تبلغ الآلاف من طريق الشّيعة، وفيها مقدارٌ كبيرٌ من الأحاديث الّتي يُمكن الاعتمادُ عليها.

وينبغي الالتفاتُ إلى أنّه ربّما تشير الرّوايات إلى المصداق الأكمل في تفسير الآية، وهذا لا يمنع من تفسير الآية بطريقة أخرى توافق ظاهرها. وقد ثبت أنّ **المَوْرِدَ لا يُخصِّصُ الوارِدَ**، إلّا أن تقوم قرينةٌ قطعيّة على أنّ آيةً مُعيّنةً قد انحصرت في مَوْرِدِها كما في آية: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ**..﴾ المائدة:٥٥. ومن التّفاسير الّتي اتّبعت هذه المنهجيّة كتاب (نور الثّقلَيْن).

٣- التّفسير اللّغويّ:

وهو تفسير مُفردات القرآن واشتقاقاتها وأصولها، كتفسير (مجمع البيان) للشّيخ الطّبرسيّ، و(مجمع البحرين) للشّيخ الطّريحيّ.

هذا، وقد تباينت توجّهات المُفسّرين واختلفت الجهات الّتي احتجّوا بها، كالجهة البلاغيّة، والفقهيّة، والكلاميّة، والفلسفيّة، والأخلاقيّة.

لا بدّ من حمل الآيات القرآنيّة على معنًى يتلاءم مع أحكام العقل القطعيّة، كبُطلان التّجسيم والتّشبيه.

تفسيرُ القرآنِ بالقرآن، يستندُ إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه نزلَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً.

موجز في تفسير سورة «الذّاريات»

معرفةُ اللّه..معرفةُ الإمامِ المُفتَرَضِ الطّاعة

إعداد : سليمان بيضون

*** سورة (الذّاريات) هي السُّورة الحادية والخَمسون في ترتيب سُوَر المُصحف الشّريف، نزلتْ بعد سورة (الأحقاف).**

*** آياتُها ستّون، وهي مكّيّة، مَن قرأها في يومه أو ليلته يُصلِح اللّهُ تعالى له معيشتَه، ويأتيه برزقٍ واسع، ويُنوّر له قبرَه.**

*** سُمِّيتْ بسورة (الذّاريات) لابتدائها بقوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾.**

جاء في بعض التّفاسير أربعة شروحٍ لكلمة «الذّاريات» الواردة في مفتتَح السّورة:

الأوّل: أنّ الذّاريات هي الرّياح تذرو التّرابَ وغيره، كما قال تعالى: ﴿..تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ..﴾ الكهف:٤٥. الثّاني: هي الكواكب، مِن ذرا يَذرو، إذا أسرع. الثّالث: هي الملائكة. الرّابع: ربّ الذّاريات، أي أُقسم بربّ الذّاريات. والأوّلُ الصّحيح، وهو المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام.

محتوى سورة (الذّاريات)

أولاً: تبدأ السّورة وتنتهي بالحديث عن المعاد، وإنكار المشركين له. ويمتاز الكلام على المعاد في السّورة – عن نظائره في مواضع أُخَر من الكتاب المجيد – من حيث إنّه يوم الجزاء، وأنّ الذي وعدَهم به هو اللّهُ ربهّم، الذي وَعْده صدقٌ، لا ريبَ فيه.

ولمّا بلغ الكلامُ موضعَ الاستدلال على المعاد، احتجّت السّورةُ بأدلّة التّوحيد من آيات الأرض، والسّماء، والأنفُس، وما عاقبَ اللّهُ به الأممَ السّالفة إثر تكذيبهم رُسُلَه، وجاء هذا الاستدلال لأجل إثبات التّوحيد، ومن ثمّ إثبات يوم الجزاء الّذي أخبرت عنه الدّعوة النّبويّة، فيندفع بذلك إنكارُ المُشركين للمعاد، وقد أرادوه مدخلاً إلى إبطال عقيدة التّوحيد، ورسالة الرّسول صلّى الله عليه وآله، من حيث صيرورة الإيمان بها لَغواً لا أثرَ له.

(العلّامة الطّباطبائي، تفسير الميزان، بتصرّف)

ثانياً: تدور مباحث سورة (الذّاريات) – إجمالاً – حول خمسة محاور:

١– المعاد: وقد استوعب القسم الأكبر من السّورة، وكذا مفتتَحها والختام.

٢– مسألة توحيد الله، وآياته تعالى في نظام الخَلق والوجود، وهي – بطبيعة الحال – مكمّلةٌ لمبحث المعاد.

٣– ضيف النّبيّ إبراهيم، عليه السلام، من الملائكة، وما أُمروا به من تدمير مُدُن قوم لوط عليه السلام.

٤– إشاراتٌ قصيرة إلى قصّة النّبيّ موسى عليه السلام، وبعض الأمم السّالفة: مثل عاد، وثَمود، وقوم نوح. وبهذا، فالسّورة تُحذّر مُشركي العرب بذِكر مآلِ مَن تقدّمهم من المُكذّبين برسالة التّوحيد.

٥– الإشارة إلى أنّ الغاية من خلْقِ الإنس والجنّ هي عبادةُ الله تعالى، وأنّ تكليف النّبيّ الأعظم هو التّذكير بآيات الله تعالى ومواعيده سبحانه.

(الشّيخ مكارم الشّيرازيّ، تفسير الأمثل، بتصرّف)

ثوابُ تلاوتها

١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الذّارياتِ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْرَ حَسَناتٍ، بِعَدَدِ كُلِّ ريحٍ هَبَّتْ وَجَرَتْ في الدُّنْيا**».

(الشّيخ الطّبرسي، مجمع البيان)

٢) عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ (الذّاريات) في يَومِهِ أو لَيْلَتِهِ، أَصْلَحَ اللهُ لَهُ مَعيشَتَهُ، وَأَتاهُ بِرِزْقٍ واسِعٍ، ونَوَّرَ لَه قَبْرَهُ بِسِراجٍ يُزْهِرُ إلى يَوْمِ القِيامَةِ**».

(الشّيخ الصّدوق، ثواب الأعمال)

تفسيرُ آياتٍ منها

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الآيات: ١-٤.

* عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام سُئلَ «..عن ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ فقالَ: الرّيح، وعن ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ فقالَ: هِيَ السَّحَابُ، وعن ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ فقالَ: هِيَ السُّفُنُ، وعن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ فقالَ: المَلائِكَةُ، وَهُوَ قَسَمٌ كُلُّهُ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ الآيتان: ٨-٩.

* عن الإمام الباقر عليه السلام: «مَنْ أُفِكَ عَنِ الوِلايَةِ، أُفِكَ عَنِ الجَنَّةِ». أي أنّ اختلافَ القول هو في أمر الولاية. ومعنى «أُفِكَ» هو أنّه صُرِفَ عن الشّيء، ومُنِعَ منه.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الآيتان:١٧-١٨.

١) عن الإمام الباقر عليه السلام: «كانَ القَوْمُ يَنامونَ، وَلَكِنْ كُلَّما انْقَلَبَ أَحَدُهُمْ قالَ: الحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَر».

٢) عن الإمام الصّادق عليه السلام: «كانوا يَسْتَغْفِرونَ في الوِتْرِ سَبْعينَ مَرَّةً، في السَّحَرِ».

قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الآية:٢٢.

١) سُئل أمير المؤمنين عليه السلام: أليس اللهُ عزّ وجلّ في كلّ مكان؟ قال: بَلَى. قال السّائل: فَلِمَ يرفعُ [الدّاعي] يدَيه إلى السّماء؟ قال عليه السّلام: «أَوما تَقْرَأُ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾؟ فَمِنْ أَيْنَ يُطْلَبُ الرِّزقُ إِلّا مِنْ مَوْضِعِ الرِّزْقِ؟ وَمَوْضِعُ الرِّزْقِ وَما وَعَدَ اللهُ السَّماءُ».

٢) عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «أَرْزاقُ الخَلائِقِ في السَّماءِ الرّابِعَةِ، تَنْزِلُ بِقَدَرٍ وَتُبْسَطُ بِقَدَرٍ».

٣) قيل للإمام الصّادق عليه السلام: ما الفرقُ بين أن ترفعوا أيديكم [حالَ الدّعاء] إلى السّماء وبينَ أن تخفضوها نحو الأرض؟ قال: «ذَلِكَ في عِلْمِهِ وَإِحاطَتِهِ وَقُدْرَتِهِ سَواءٌ، وَلَكِنَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، أَمَرَ أَوْلِياءَهُ وَعِبادَهُ بِرَفْعِ أَيْديهِمْ إِلى السَّماءِ نَحْوَ العَرْشِ، لِأَنَّهُ جَعَلَهُ مَعْدِنَ الرِّزْقِ».

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ الآية:٥٠.

* عن الإمام الباقر عليه السلام: «حُجّوا إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

والحَجُّ هو القَصدُ والقُدوم. قيل: أي فِرُّوا من عقابِه إلى الإيمانِ والتّوحيدِ ومُلازمةِ الطّاعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية:٥٦.

* عن الإمام الصّادق عليه السلام: «خَرَجَ الحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلى أَصْحابِهِ، فَقالَ: أَيُّها النّاسُ، إِنَّ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ ذِكْرُهُ، مَا خَلَقَ العِبادَ إِلّا لِيَعْرِفوهُ، فَإِذا عَرَفُوهُ عَبَدُوهُ، فَإِذا عَبَدُوهُ اسْتَغْنَوْا بِعبادتِهِ عَنْ عِبادَةِ مَنْ سِواهُ.

فقالَ له رجلٌ: يا ابنَ رسول الله، بأبي أنتَ وأُمّي، فمَا معرفةُ الله؟ قال: مَعْرِفَةُ أَهْلِ كُلِّ زَمانٍ إِمامَهُمُ الّذي تَجِبُ عَلَيْهِمْ طاعَتُهُ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ الآية:٥٨.

* عن الإمام الصّادق عليه السلام: «كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، عليه السلام، كَثِيراً مَا يَقُولُ: اِعْلَمُوا عِلْماً يَقِيناً أَنَّ اللهَ، عَزَّ وَجَلَّ، لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ، وإِنِ اشْتَدَّ جَهْدُهُ وَعَظُمَتْ حِيلَتُهُ وكَثُرَتْ مُكَابَدَتُهُ، أَنْ يَسْبِقَ مَا سُمِّيَ لَه فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ. ولَمْ يَحُلْ مِنَ الْعَبْدِ، فِي ضَعْفِهِ وقِلَّةِ حِيلَتِهِ، أَنْ يَبْلُغَ مَا سُمِّيَ لَه فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّه لَنْ يَزْدَادَ امْرُؤٌ نَقِيراً بِحِذْقِه، ولَمْ يَنْتَقِصِ امْرُؤٌ نَقِيراً لِحُمْقِهِ...».

(الشّيخ الحويزيّ، تفسير نور الثّقلين)

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾،

عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية:

«كانَ القَوْمُ يَنامونَ، وَلَكِنْ كُلَّما انْقَلَبَ أَحَدُهُمْ قالَ: الحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَر».